لـيس في أصناف العلومِ الخفية والأمورِ الغامضة الدقيقة أعجبُ طريقاً في الخفاء من هذا . وإنك لَتُتْعِبُ في الشيء نفسَكَ وتكدّ ُ فيه فكرَكَ وتجهد فيه كلّ َ جَهدك . حتى إِذا قلتَ : قد قَتَلْتُه علماً وأحكمتُه فهماً كنتَ الذي لا يزالُ يتراءى لك فيه شُبهةٌ ويعرِضُ فيه شكّ ٌ . كما قال أبو نواس - الطويل - : .

(أَلا لا أرى مثلَ امترائيَ في رَسْمِ ... تَغَصّ ُ به عَيني ويلفِظُه وَهْمي) .

(أتَتْ صورُ الأشياء بَيني وبينهُ ... فظنّ ِي كلا ظن وعِلْمي كلا علمِ) .

وإنك لتنظرُ في البيتِ دهراً طويلاً وتفسّ ِره ولا ترى أن فيه شيئاً لم تعلمْه . ثم يبدو لك فيه أمرٌ خفيّ ٌ لم تكن قد علمتَه مثالُ ذلك بيتُ المتنبي - الكامل - : .

(عَجَباً لهُ حَفِظَ العِنانَ بأُنْمُلٍ ... ما حِفْظُها الأشياءَ مِن عاداتِها) .

مضى الدّهرُ - الطويل - ُ ونحن نقرؤه فلا ننكِرُ منه شيئاً ولا يقعُ لنا أن فيه خطأ ثم بانَ بأَخرَةٍ أنه قد أخطأ . وذلك أنه كان ينبغي أن يقولَ : " ما حفظُ الأشياءِ من عاداتِها " فيضيفَ المَصدرَ إلى المفعولِ فلا يذكرُ الفاعلَ ذاك لأن المعنى على أنّه ينفي الحِفظَ عن أناملِه جُملةً وأنه يزعم أنه لا يكونُ منها أصلاً وإضافتُه الحفظَ إلى ضميرِها في قوله : ما حفظها الأشياءَ يقتضي أن يكون قد أثبتَ لها حِفظاً .

ونظيرُ هذا أنك تقول : " ليس الخروجُ في مثلِ هذا الوقتِ من عادتي " ولا تقولُ : " ليس خروجي في مثل هذا الوقت من عادتي " . وكذلك تقولُ : " ليس ذمّ ُ الناسِ من شأني " ولا تقولُ : " ليس ذمّ ِي الناسَ من شأني " . لأن ذلك يوجبُ إثباتَ الذمّ ِ ووجوده منك .

ولا يصحّ ُ قياسُ المصدر في هذا على الفعْل أعني لا ينبغي أن يُظَنّ َ أنه كما يجوز أن